الفَخْرُ

إِطْلَاقُ العِنَانِ لِلاعْتِزَازِ بِالفَضَائِلِ

الفَخْرُ مِنْ أَوَّلِ فُنُونِ الأَدَبِ تَأْثِيرًا عَلَى فِطْرَةِ الإِنْسَانِ، وَيَكُونُ بِتَعْدَادِ الشَّاعِرِ صِفَاتِهِ الكَرِيمَةَ وَتَحْسِينِ السَّيِّئِ مِنْهَا. وَنَرَاهُ يَرْتَبِطُ غَالِبًا بِالشَّجَاعَةِ، وَالكَرَمِ، وَالوَفَاءِ، وَالحِلْمِ، وَعَرَاقَةِ الأَصْلِ، وَحِمَايَةِ الجَارِ وَالنَّزِيلِ، وَمَنْعِ الحَرِيمِ. وَمِنَ الصِّفَاتِ أَيْضًا التِي يَفْتَخِرُ بِهَا الشُّعَرَاءُ النَّجْدَةُ وَمُسَاعَدَةُ المُحْتَاجِ، وَإِغَاثَةُ المَلْهُوفِ، وَالذَّبُّ عَنِ الحِمَى، وَغَيْرُهَا مِنَ الفَضَائِلِ التِي عَرَفَهَا العَرَبُ. وَيَتَوَافَقُ الفَخْرُ مَعَ المَوْرُوثِ العَرَبِيِّ الأَصِيلِ، فَقَدْ ظَلَّ العَرَبُ عَبْرَ تَارِيخِهِمْ، وَفِي كُلِّ العُصُورِ، يَعْتَزُّونَ بِالحَسَبِ وَالنَّسَبِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا تَهَاوُنَ فِيهِ وَلَا تَفْرِيطَ، وَيَرْقَى إِلَى مَرْتَبَةِ القَدَاسَةِ، فَلَا يَجْرُؤُ أَحَدٌ عَلَى المَسَاسِ بِهِ، أَوِ التَّعَرُّضِ لَهُ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ، وَإِلَّا فَالحَرْبُ وَالعَدَاوَةُ التِي قَدْ تَمْتَدُّ أَجْيَالًا.

وَالفَخْرُ مِنْ نِتَاجِ العَاطِفَةِ الجَيَّاشَةِ الصَّادِقَةِ، وَالانْفِعَالِ القَوِيِّ، كَمَا أَنَّهُ الاعْتِزَازُ بِالفَضَائِلِ الحَمِيدَةِ التِي يَتَحَلَّى بِهَا الشَّاعِرُ أَوْ تَتَحَلَّى بِهَا قَبِيلَتُهُ. وَالفَخْرُ يَشْمَلُ جَمِيعَ الفَضَائِلِ، عَلَى خِلَافِ الحَمَاسَةِ التِي رُبَّمَا تَقْتَصِرُ عَلَى الفَخْرِ بِالانْتِصَارَاتِ الحَرْبِيَّةِ.

وَمِنْ هُنَا لَا يَلْتَزِمُ الفَخْرُ بِالحَقَائِقِ التَّارِيخِيَّةِ، بَلْ يَعْمَدُ إِلَى المُبَالَغَةِ وَالتَّهْوِيلِ، وَإِطْلَاقِ الخَيَالِ الخَصِيبِ. وَتَنْطَلِقُ فِيهِ الأَلْفَاظُ وَالعِبَارَاتُ مُوَافِقَةً لَهُ، مُطَابِقَةً مُقْتَضَى حَالِهِ، مُشْتَدَّةً بِشِدَّتِهِ.

كَانَ هُنَاكَ الفَخْرُ الذَّاتِيُّ، وَفِيهِ يَفْخَرُ الشَّاعِرُ بِنَفْسِهِ، قَاصِرًا فَخْرَهُ عَلَيْهَا، غَيْرَ مُلْتَفِتٍ لِسِوَاهَا. وَكَانَ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الفَخْرِ كَثِيرًا جِدًّا، وَقَدْ نَبَتَ تِلْقَائِيًّا مِنْ نُفُوسٍ تَهْوَى العِزَّةَ، وَتَعْشَقُ المَجْدَ. وَكَانَتْ أَسْوَاقُ العَرَبِ مِثْلُ سُوقِ عُكَاظٍ تَبْسُطُ أَمَامَهُمْ

مَيَادِينَ القَوْلِ وَالمَفَاخَرَةِ. كَذَلِكَ كَانَتْ لَهُمْ مَجَالِسُهُمُ التِي يَجْتَمِعُونَ فِيهَا لِتَنَاشُدِ الأَشْعَارِ، وَمُبَادَلَةِ الأَخْبَارِ. وَالشَّاعِرُ لِسَانُهُمْ وَالذَّائِدُ عَنْهُمْ، وَالشِّعْرُ دِيوَانُهُمْ، وَكَانَ البَيْتُ يَرْفَعُ القَبِيلَةَ، وَيَشِيدُ بِذِكْرِهَا، وَيُعْلِي مِنْ شَأْنِهَا، كَذَلِكَ كَانَ الشِّعْرُ، وَكَانَ الشَّاعِرُ، وَكَانَتِ الأَسْوَاقُ وَالمَجَالِسُ.

وَإِلَى جَانِبِ الفَخْرِ الذَّاتِيِّ وُجِدَ الفَخْرُ الاجْتِمَاعِيُّ. وَفِيهِ يَتَغَنَّى الشَّاعِرُ بِأَمْجَادِ قَوْمِهِ، وَيَشِيدُ بِمَنَعَتِهِمْ وَعِزَّتِهِمْ، وَيُسَجِّلُ مَفَاخِرَهُمْ مُبَاهِيًا بِهَا.

فَنُّ الفَخْرِ مَوْرُوثٌ ثَقَافِيٌّ يَتَوَافَقُ مَعَ الفِطْرَةِ العَرَبِيَّةِ

وَمَعَ بِدَايَةِ العَصْرِ الإِسْلَامِيِّ تَحَوَّلَ الفَخْرُ مِنَ الفَخْرِ بِالقَبِيلَةِ إِلَى الفَخْرِ بِالدِّيَانَةِ مَعَ بَقَاءِ فَخْرِ الفَرْدِ كَمَا هُوَ. وَالإِسْلَامُ جَعَلَ عِوَضًا عَنْ فَخْرِ قَبِيلَةٍ مَحْصُورَةِ العَدَدِ فَخْرَ قَبَائِلَ مُنْدَمِجَةٍ تَحْتَ لِوَاءِ الإِسْلَامِ، فَتَوَحَّدَ العَرَبُ وَفَخَرُوا بِإِسْلَامِهِمْ عِوَضًا عَنْ قَبَائِلِهِمْ فَدَانَتْ لَهُمْ مَمَالِكُ الفُرْسِ وَالرُّومِ.

وَظَلَّ الأَمْرُ عَلَى حَالِهِ قَلِيلًا مِنَ الزَّمَنِ حَتَّى إِذَا مَا تَسَلَّمَ بَنُو أُمَيَّةَ الحُكْمَ عَادَتْ تِلْكَ النَّعَرَاتُ القَبَلِيَّةُ وَعَادَ ذَلِكَ الفَخْرُ القَبَلِيُّ مَعَ بَعْضِ التَّأْثِيرِ الإِسْلَامِيِّ. فَنَجِدُ شَاعِرًا مِثْلَ جَرِيرٍ يَفْخَرُ بِقَوْمِهِ حِينًا وَبِإِسْلَامِهِ حِينًا آخَرَ أَمَامَ الأَخْطَلِ النَّصْرَانِيِّ.

وَفِي العَصْرِ العَبَّاسِيِّ وَمَا تَلَاهُ بَدَأَ اخْتِلَاطُ النَّاسِ، خَاصَّةً بَعْدَ إِسْلَامِ المَلَايِينِ مِنْ غَيْرِ العَرَبِ، مَا أَفْضَى إِلَى ظُهُورِ شُعَرَاءَ عَجَمٍ مُسْلِمِينَ كَالبُسْتِيِّ وَغَيْرِهِ. فَإِذَا فَخَرُوا فَخَرُوا بِأَنْفُسِهِمْ وَانْصَرَفَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِلَى طُرُقِ أَبْوَابِ فُنُونِ الشِّعْرِ الأُخْرَى كَالغَزَلِ وَالحِكْمَةِ تَجَنُّبًا لِلانْزِلَاقِ فِي مَتَاهَةِ الفَخْرِ القَبَلِيِّ.

وَأَجْمَلُ الفَخْرِ عِنْدَ النُّقَّادِ هُوَ مَا جَمَعَ بَيْنَ فَخْرِ الفَرْدِ بِجَمَاعَتِهِ وَفَخْرِ الجَمَاعَةِ بِالفَرْدِ، وَبِهِ يُوَازِنُ الشَّاعِرُ بَيْنَ إِثْبَاتِ عَرَاقَةِ نَسَبِهِ وَإِثْبَاتِ مَجْدِهِ الشَّخْصِيِّ. وَيُشْتَرَطُ فِي مِثَالِيَّةِ الفَخْرِ أَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ صَادِقًا فِيمَا يَفْخَرُ بِهِ وَإِلَّا فَسَيُبْهِرُنَا لُطْفُ التَّخَيُّلِ وَدِقَّةُ الحَبْكِ وَجَمَالُهُ دُونَ إِثَارَةِ أَيِّ عَاطِفَةٍ فِينَا.